على هامش معالم التقريب

الـــدين والحـــرية *

فى كتابه الضافى · معالم التقريب، أورد أستاذنا المفكر الجليل محمد عبدالله محمد، أنه لا شك أن البلدان الإسلامية بعامة، قد نقلت فى أحكام دساتيرها وقوانينها الوضعية ـ عن الدساتير والقوانين الأوربية، لأغراض عملية روعى فيها ظروف كل بلد وحاجته إلى الأخذ بأسباب الحضارة والمشاركة فى المجرى الرئيسى النافع للحضارة، ولكن الذى لا مراء فيه أيضا أنها لم تنتقل فيما أخذته .. عن التيارات الإلحادية التى طفت إلى الفكر الأوروبى، ولم تستأنس بما استأنست به من أحكام لكى تستغنى بها عن الدين بل ترى فى القانون المدنى المصرى الذى قام فيه الفقيه السنهورى بالدور الأكبر ـ ترى الشريعة الإسلامية مصدرا من المصادر التى تكمل ما عساه لا تغطيه النصوص، فلا وجود لفكرة مفارقة الدين فى الاستعانة بالصيغ الغربية لا فى التشريعات ولا فى بعض أساليب الحياة . ولا ضير على المسلم، أو المسيحى، فى أن يأخذ من أسباب الحضارة بما يشاء مادام لا يتعارض مع قيم ومبادئ دينه، ولقد طبقت القوانين الوضعية واستخدمناها وألفنا استخدامها لعشرات السنين مشرعين ومنفذين وقضاة ومحامين ومتقاضين ومتعاملين، دون أن تأخذ شيئا من الدين .

---

* المال ٢٠١٠/٧/١٩

إن الله تعالى هو وحدة الموحدين الحقيقية، وهو وجودهم الحى ..هو وحْدَه سبحانه وتعالى الذى شد ويشد إليه مئات الملايين من الضعفاء والفقراء، فلم ولن تبتلعهم قوى هذا العصر الخطرة الشريرة . وهذا الشعور العميق الغائر فى نفس المؤمن، هو الحبل الذى يقيه ويتماسك به، وقتل هذا الشعور هو الذى يقتل ويجافى الدين .

والحريات المدنية والسياسية والاقتصادية، وما يتبعها من حرية الرأى والفكر والاعتقاد، لا يلغى ولا يصادر الدين، ولا يخل بالتدين . فالمفهوم السياسى للحريات أنها ضمانات من صنع الناس، شرعوها وفرضوها بمجتمعاتهم لحماية أنفسهم من أى تجاوز أو تسلط أو عسف من الحكام أو غيرهم . وهذه الحريات الوضعية كلها خارجية تتغيا إبعاد أنواع من العوائق والعوارض والقيود الخارجية، ولا شأن لها بداخل الإنسان، ثم إن هذه الحريات محكومة بفكرة النظام العام لا تتعداه، والنظام العام هو محصلة القيم التى تعارف عليها المجتمع وفى مقدمتها قيم الأديان .. فليست الحريات حرباً على الدين ولا انتقاصا منه أو مصادرة له أو للتدين .

بل إن الذى يتغلغل إلى تصور الإسلام للمعنى الكلى الذى تشير إليه كلمة الحرية فى العصر الحديث، يجد أنه أكثر فهما وعمقا واعتناقا لقيمة هذا المعنى ومكانته .. ذلك أن مشكلة الحرية ليست عند التأمل مشكلة سياسية أو اقتصادية بقدر ما هى مشكلة عاطفية عقلية، فهى لا توجد إذا كنا جميعا ـ حاكمين ومحكومين ـ متفقين على الصواب والخطأ، وفى الرغبات وفهمها وضرورة الاختيار بينها وتنظيم كيفية إشباعها، ووفقا لمعيار عادل ثابت للكرامة الشخصية لا يتأثر بقوة الفرد وضعفه، أو بقدر أهميته أو مصلحته . ففكرة الكرامة متداخلة تداخلا عميقا فى ميدان المشاعر

والعواطف أكثر منها فى ميدان المعقولات والمصالح، فالحرية جذورها فى منطقة الشعور، وفى مجال القيم التى يزن بها الإنسان نفسه فى عينه وفى عيون الآخرين متشبثا بفكرة المساواة . والواقع أن المستوى الكريم للحياة تصور منتزع من عناصر مادية يحمل معنى التميز . فالحياة الكريمة بغض النظر عن الشعارات والنظريات - هى فى عصرنا حياة مادية مادام المال هو القيمة الاجتماعية الرئيسية التى يتركز عليها اهتمام الناس، وما دام وضع الإنسان الاقتصادي فى المجتمع هو الذى يربط بين نصيبه الفعلى من احترام نفسه واحترام المجتمع له . وإشكالية أخرى، أن صار صعبا على الإنسان العادى فى زماننا أن يشعر بالأهمية أو الإنصاف وهو منفرد وبعيد عن التكتل، فى حزب أو نقابة أو ما شابه !

إذن فالحرية التى يحتاجها العصر، ويفلتها من يده باستمرار، هى التحرير من استبداد واستعباد رغباتنا ومطامعنا التى تدعو القوى لإهمال الضعيف، والحاكم للاستقواء بسلطته على المحكوم، والطامعين للتغول بمطامعهم أو استبدادهم على البسطاء . وما من طالم إلا وأداته إنسان تستعبده هو الآخر مطامعه وشهواته، ولا يمكن لأي استبداد أو طغيان اجتماعى أو سياسى أو اقتصادى أن يوجد .. إلا إذا كان الناس قد فقدوا حريتهم الداخلية !

والشعور بالحرية الداخلية، هذا الشعور الملىء بالوقار والطمأنينة، منبعه وواحته الدين . ونرى بهذا المعنى الكلى كيف أن منظومة دين كالإسلام، توفر عناصر وضوابط وروح ومعنى الحرية فالمسلم الصادق يكون حرا وهو مسجون، وحرا وهو رقيق، وحرا وهو فقير .. وهكذا رأينا بلال وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وغيرهم، قلوبهم الملآنة بالحرية هى التى تجاوزوا بها الفقر وتحرروا

من نير العبودية وآمنوا بقلوب معمورة بحرية أعمق وأشد من حرية الكثيرين من الطلقاء والسادة والأغنياء وذوى الجاه والزعماء .

هذه الحرية الداخلية التى يطلقها الإسلام فى قلب المسلم الصادق، ليست السلبية أو البلادة أو عدم المبالاة، وليست فى الرعونة ولا الحماقة والتجبر على الناس أو العصف بحيواتهم وبالعمران، وهى بالبداهة ليست حرية ترك الدين أو الانقلاب عليه، وإنما هى أخوة فى الله، أبدية فى الدنيا والآخرة، تجمع المؤمنين بقلوب عامرة بالهداية والإيمان الذى يربط عليها بحبل متين تستقيم به الحياة بين جميع الأحياء .